الملحق
العدد ٥٧٨
الأحد ٦ نيسان ٢٠٠٣

"الهجرة الأخيرة" لجاد الحاج
ضوء يعلن رواية أخرى

جمانة حداد

كان على جاد الحاج أن يكتب بعض سيرته بالإنكليزية كي يظن القارىء أن تلك الحياة ليست حياته. لكن حيلة اللغة لن تنطلي، وربما هو أيضاً يريدها ألاّ تنطلي. "الهجرة الأخيرة"، رواية جاد الحاج الصادرة لدى منشورات "باناش" الأوسترالية، قصة مواطن يبحث عن وطن ينتمي إليه، وهي نفسها قصة رجل يبحث عن رحم امرأة يأوي إليها.
وفي قلب هذه الثنائية، ثنائية المواطن/الرجل، تسيل حوادث الرواية بما فيها من هجرة وتيه وحب وعائلة وبيوت هي بيت واحد بمنازل كثيرة.

الرواية هي أيضاً رواية مرارة ويأس. مرارة العاشق الذي أعطى قلبه وخسر، ويأس الانسان الذي كانت له جذور وفقدها.
وقبل أن تكون قصة لقاء بين شرق وغرب، هي قصة حنين ـ مضمر ولكنه فوّاح ـ الى ماضٍ وطفولة وذكريات في لبنان ما قبل الحرب.
لن أقول إن الراوي أشرف، هو جاد، ولا إن الصحافي المتنقل بين المدن من بيروت الى دبي الى امستردام الى سيدني حاملاً خيباته من الشعوب العربية ومتأبطاً سخريته السوداء اللاذعة، هوذاك الذي نعرفه، ولا إن المهاجر الى أوستراليا هو شاعرنا إياه، ولا إن الأب الجنوبي (من أعمال قانا) المصاب بلعنة السرطان هو هذا الوالد نفسه المتحدر من قيتولي.
لكنّ الرواية، وإن كانت تعمد الى مجموعة من الصيغ بهدف تمويه البطل وتغريبه عن كاتبه، لا تستطيع أن تخفي أنفاس البعد الذاتي والتجربة الحارقة التي تتلطأ تحت أقنعة السرد جارياً على ألسنة أبطال وشخصيات وحيوات وأمكنة ذوي أسماء وهويات ومناخات محددة.
من كلير الى آنا مروراً بجيني، من المرأة/الحلم الى المرأة/الأرض مروراً بالمرأة/الهواء، من الحبيبة القدرية الصاعقة المستسلمة للحبّ، الى الخفيفة العابرة الخائفة منه،وصولا الى القوية الهادئة الثابتة فيه، من سكّين الموت الى أوجاع أخرى لا مفرّ من ندوبها، ثمة رحلة لرجل كان عليه أن يذهب ليعود. كان عليه أن يضيّع امرأة الأسطورة ليربح المرأة الأبقى. وكان عليه أن يتبدّد لكي يتحد بأنواته. فبين قانا حيث الوالدة التي لا تريد أن تغادر أرضها وبيتها، ولندن وهي مركز العمل، وسيدني حيث الإبنتان ريم وليلى، بالإضافة الى أقدار الترحال الدائم، ثمة الكثير من التمزق والانسلاخ والحيرة في القصة. وبسبب ذلك كله، سيكون الحبّ هو خشبة الخلاص التي يتشبث بها أشرف لينقذ جذوره من التشتت والهباء. إنه الحب ضدّ الفراغ والخوف والضياع. الحبّ العدم والنسيان والموت.
"الهجرة الأخيرة" هي إذاً رواية حنين متعدد الوجه ولن ينفع في هذا الحنين أيّ بكاء، لذا فإن الراوي لا يبكي ولا ينوح، بل يروح يخترع من خساراته وفقداناته ما يجعله قادراً على أن يكون صانع أحلام تجعل الحياة ممكنةً مرةً أخرى. إنه يخترع ما يخيَّل الى الرواية أنها في حاجة اليه كي تحيا وتنسج على ضفاف جوهرها تفاصيل يومياتها وأمكنتها. الا انّ هذه التفاصيل يكشفها جاد الحاج من دون "حكي"، أي بتكثيف واقتضاب كافيين ليقولا الكثير. وهذه الخصوصية ناجمة عن كون الراوي شاعراً لم يوقعه ولعه بالصحافة في مطباتً الشرح والثرثرة. فعندما يتحدث عن بيته، عن حبه، عن أصدقائه، عن جذوره، عن عائلته، عن دوّامة التيه، فإنما يتيح لنا أن نكمل المشاهد بأنفسنا، فننسج خيوط عناصرها المغيّبة مثلما تمنحنا التخيلات أن نستكمل ما لم يتم قوله وشرحه. هنا المكتوم يوازي المباح، ينافسه تارةً ويسنده طوراً. هنا القارىء سيكون قناع الراوي حيناً، ويده التي تستكمل الكتابة حيناً آخر، وفي ذلك ما يجعل العمل مشتركاً بعض الشيء بين الكلام المَقال وذاك الموحى به.
ومن يستطيع أن يخترع إذا لم يكن مخترعاً؟ أفي مقدور الراوي لو أنه شخصية عادية من شخصيات الرواية، أن يصنع هذا العالم المتكامل الممتد من ساحل البحر في جنوب لبنان الى سواحل المحيطات الغائرة في مجاهل العالم الآخر؟ هذا التساؤل يدفعنا الى أن نورّط الشاعر الماثل وراء الكواليس في "تهمة" المشاركة في ارتكاب النص الروائي. فصفحات الكتاب تسلّم نفسها وقيادها لشعرية الأسلوب بدءاً من "كتاب كلير الصغير" الذي يستهل به الحاج كل الفصول، وصولاً الى أبسط الحيثيات التي تراكمها أحداث الرواية.
الشاعر والراوي إذاً متواطئان في تبادل الأدوار في ما بينهما في هذه الرواية/الديوان، فما لا يريده الراوي لنفسه، يلقي تبعته على الشاعر، والعكس بالعكس. هذا التواطوء هو نفسه المفترض بين جاد وأشرف وكلاهما واحد أحد، وإن ضللنا السبيل اليهما أحياناً.

وهل من لبنان في هذه الهجرة؟ نعم، وبقوة. ولكن ليس في حضور لبنان ما يدعو الى التشبه بتلك الصورة الطوباوية في معظم تجارب الاغتراب. فثمة هنا لبنان معشوق بقدر ما نعثر عليه مكروهاً ومثيراً للألم والشجن والخيبة. هذا اللبنان حاضرٌ خصوصاً في يأس أشرف، وفي علاقته بأرضه وجذوره، وبأمه، وبمطلقته اللبنانية، وبابنتيه الغريبتين، المندمجتين في المجتمع الاوسترالي، رغم حميمية علاقته بهما. ولكم يبدو لافتاً أيضاً في الرواية حضور لبنان – المطبخ، حيث تنضج تحت يدي أشرف أطيب المأكولات اللبنانية وأشهاها. مأكولات لا يصادرها الراوي لنفسه بل يجعلها ولائم لكلير وآنا وفرنسواز ولآخرين وهم كثر.
وإذ لا تذهب رواية جاد الحاج كما قلنا مذهب السرد الذي يرمي نفسه في غواية الاندلاق والإكثار والإطناب، يبدو لافتاً مدى انتماء صوتها الى سمفونية اللغة الانكليزية الفطرية لا المكتسبة. فبين ايدينا رواية تنقطف جملها انقطافاً، حتى لتبدو أحياناً كلمعات البروق.
عباراتٌ قصيرة، حادة، متينة، مسبوكة على طبعية، مقطوعة ببراعة كأنها جزء من جمل أخرى. وفي هذه الإنكليزية المشغولة باعتناء أهل البيت ودرايتهم، قد يخيل الينا للوهلة الاولى أننا أمام كاتب إنكليزي الأصل تنشّأ على لغته الأم هذه. لذلك فإن أحد منجزات جاد الحاج في "هجرته" أنه كتب الإنكليزية بصنيع من داخلته أسرارها الطبيعية حتى بدت تجربته في هذا الباب عفوية بلا افتعال ولا كدّ من خارج.
هكذا كان على الراوي أن يعيش ما عاشه وأن يروي ما رواه، وأن يتخبط في ثنائياته الكثيرة، ثنائية الروح والجسد، الانتماء والحرية، الغربة والوطن، الفقدان والخلاص، الوهم والأمل، الهزيمة والمفاجأة، لكي يكتشف أنّ الاتحاد بالآخر هو خصوصاً اتحاد بالذات، وانّ رحلة القلب الباحث عن مرفأ ما هي الا عودة الى نقطة الانطلاق واكتمال لدورة القدر.
ومثله كان على أشرف أن يفقد الحبيبة الأولى كلير، لكي يكتشف في أعماق أعماق النهايات أن امرأة ما تدعى آنا، هي الصديقة المتأهبة المتزنة الحنون التي رافقته طوال عذاباته وتطوافاته، ستكون لا الظل الذي اكتنف صورتها مدى الصفحات، بل ضوء الفجر الذي تُختَم به جلجلة الهجرة وتُستهَل به الرواية الأخرى التي لم تُكتب ■